

مختصر ابن كثير

- . 38 - هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذريه طيبة إنك سميع الدعاء .
- 39 - فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن إله يبشرك بتحقيق مصدقا بكلمة من إله وسیدا وحصورا ونبيا من الصالحين .
- 40 - قال رب أني يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وأمرأتي عاقر قال كذلك إله يفعل ما يشاء .
- 41 - قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار .

لما رأى زكريا عليه السلام أن إله يرزق مريم عليها السلام فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهه الصيف في الشتاء طمع حينئذ في الولد وإن كان شيخا كبيرا قد وهن منه العظم واشتعل الرأس شيئا وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقدا ولكنه مع هذا كله سأله ربه وناداه نداء خفيا وقال : { رب هب لي من لدنك } أي من عندك { ذريه طيبة } أي ولدا صالح { إنك سميع الدعاء } قال تعالى : { فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب } أي خاطبته الملائكة شفها خطاباً أسمعته وهو قائم يصلي في محراب عبادته ومحل خلوته ومجلس مناجاته وصلاته ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة { أن إله يبشرك بتحقيق } أي يولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى . قال قتادة : إنما سمي يحيى لأن إله أحياه بالإيمان وقوله { مصدقا بكلمة من إله } روى العوفي عن ابن عباس في هذه الآية : { مصدقا بكلمة من إله } أي بعيسى بن مريم وقال الربيع بن أنس : هو أول من صدق بعيسى بن مريم وقال ابن جريج : قال ابن عباس : كان يحيى وعيسى ابني خالي وكانت أم يحيى تقول لمريم : إني أجده الذي في بطنني يسجد للذي في بطنك بذلك تصدقه له في بطن أمه وهو أول من صدق عيسى وكلمة إله عيسى وهو أكبر من عيسى عليه السلام وهكذا قال السدي أيضا .

وقوله تعالى : { وسیدا } قال أبو العالية حلیما وقال قتادة : سیدا في العلم والعبادة وقال ابن عباس : السيد الحليم التقي وقال ابن المسيب : هو الفقيه العالم وقال عطية : السيد في خلقه ودينه وقال ابن زيد : هو الشريف وقال مجاهد : هو الكريم على إله .

وقوله تعالى : { وحصورا } روى عن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد أنهم قالوا : الذي لا يأتي النساء وعن أبي العالية والربيع بن أنس : هو الذي لا يولد له ولا ماء له وعن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : ليس أحد من خلق إله لا يلقاه بذنب غير يحيى بن زكريا ثم قرأ سعيد { وسیدا وحصورا } ثم أخذ شيئاً من الأرض فقال : الحصور من كان ذكره مثل ذا .

وقد قال " القاضي عياض " في كتابه " الشفاء " اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان حصوراً كما قاله بعضهم إنه كان هيواناً أو لا ذكر له بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ونقاد العلماء وقالوا : هذه نقيصة وعيب لا يليق بالأنبياء عليهم السلام وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب أي لا يأتيها كأنه حصور عنها وقيل : مانعاً نفسه من الشهوات وقيل : ليست له شهوة في النساء وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله تعالى كيحيى عليه السلام ثم هي في حق من قدر عليها - وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه - درجة عليا وهي درجة نبينا صلى الله عليه وسلم الذي لم يشغله كثرتهم عن عبادة ربها بل زاده ذلك عبادة بتحصينهن وقيامه عليهن وإكسابه لهن وهذايته إياهن بل قد صر أنها ليست من حظوظ دنياه هو وإن كانت من حظوظ دنيا غيره فقال : " حبب إلي من دنياكم " (انظر الشفاء للقاضي عياض فهو كتاب جليل ونفيس) هذا لفظه والمقصود أنه مدح لحيي بأنه حصور ليس أنه لا يأتي النساء بل معناه كما قاله هو وغيره : أنه معصوم من الفواحش والقاذورات ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغضباً نهن وإيلادهن بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال : { هب لي من لدنك ذرية طيبة } كأنه قال ولداً له ذرية ونسل وعقب والله سبحانه وتعالى أعلم .

قوله تعالى : { ونبياً من الصالحين } هذه بشارة ثانية بنبيه يحيى بعد البشارة بولادته وهي أعلى من الأولى كقوله لأم موسى : { إنا رادوه إليك وجعلوه من المرسلين } فلما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر { قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وأمرأتي عاقر قال } : أي الملك { كذلك الله يفعل ما يشاء } أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء ولا يتعاظمه أمر { قال رب اجعل لي آية } أي عالمة استدل بها على وجود الولد مني { قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلى رمزاً } أي إشارة لا تستطيع النطق مع أنك سوي صحيح كما في قوله : { ثلاثة ليال سوياً } ثم أمره بكثرة الذكر والتكبير والتسبيح في هذه الحال فقال تعالى : { وادرك ربكم كثيراً وسبح بالعشي والإبكار }